الاثنين ١٦ / ١٢ / ٩١

معرضان لضياء العزاوي في بيروت

اشكال من الخط وواحات الوان غير كاملة

□ بيروت – من عباس بيضون:

وفقراتها والالوان الصيفية الحارة تلتم فيه وتتركب وتجد هندسة

اشكال من الخط وواحات الوان غير كاملة

□ بيروت – من عباس بيضون:

■ معرضان في صالتين في الوقت ذاته. حفلا افتتاح في مساء واحد: صالتا ٥٠/٧٠ والكارلتون في بيروت، ولم تتسع جدران الصالتين للوحات ضياء العزاوي، فعرضت على الطاولات مجموعات في علب، غالبيتها بل كلها رسوم لنصوص شعرية: نصوص للجواهري ولنادايا تويني ونزار قباني وطلال حيدر ويوسف الخال، كل واحدة منها كتاب كامل وقد تكون لكتاب واحد، بالاضافة الى رسوم أشعار عن بيروت: قباني، أدونيس، حاوي... الخ، اي اننا حيال مهرجان عارم لضياء العزاوي.

للمتفرج اذن ان يرى كثيراً، وأكثر مما تتسع له زيارة، لكن المتفرج لا يتعب مع ذلك من فرط الرؤية. انه يستلم الالوان التي لا تلبث ان تطفح من عينيه ومسامه، فلفرجة العزاوي غواية، ولوحته من دون شك متعة. ألوانه تخطف العين وخطوطه تحرك القلب وزائر المعرضين مدين للعزاوي بغبطة أكيدة.

لا نجد في لوحات العزاوي الاخيرة مفردات زخرفية وحروفية كثيرة، ولولا القليل منها لافتقدنا هذه المفردات نهائياً، بل لا نشعر ان التشكيل الزخرفي او الحروفي أساس في هذه اللوحات، فلوحات العزاوي اليوم لا توحي بأنها اجزاء من عمارة اسلامية كما كانت توحي لوحاته من قبل. إذ ان الناظر الى اللوحات السابقة لا يستشف منها حروفاً وزخارف فحسب، بل قباباً وأعمدة، يشعر ان بناء اللوحة في تشابكه تحت قبة لامرئية احياناً أقرب إلى معمار اسلامي.

لوحات العزاوي اليوم ليست على هذا النسق. انها تستبعد المؤثرات الجانبية والاضافات (المجانية أحياناً) التي كانت في سابق أعماله. لا تغيب الحروف والزخارف الحرة التي كانت تذيل اللوحات او تزينها، بل يكاد طير العزاوي المألوف ان يغيب عنها. فلوحاته تستبعد التحف التامة والاشكال المكتملة من داخل اللوحة. تحل الوجوه احياناً محل هذه، لكن وجوه العزاوي هذه أقرب الى رؤوس تماثيل مطموسة قليلة التجسيم. انها بعيونها الجوفاء المطموسة بالاسود وبطلتها النصبية مستنبت ألوان وخطوط شعيرية. الاسود يدخل في لحمتها وشبكها بقوة. فتكاد هذه الوجوه ان تتفسخ دائماً عن حياة عشبية ليلية.

ولعل هذا الطابع الليلي قوي في لوحات العزاوي الجديدة. الاسود الغليظ او الشعيري او المبقع اساس تقطيع الاشكال والوجوه الى مساحات متفاوتة الضآلة والسعة، متفاوتة النمنمة والتخريم. لكن اللوحات تتحول بها الى فسيفساءات كبيرة. الاسود هو الذي يحدد وحداتها وسطوحها وهو الذي يطغى احياناً على هذه الوحدات يوشحها او يعتمها تماماً ويسرع بها الى ليل كامل. والاسود احياناً هو الذي يزيحها او تتهدل خطوطه عليها. وفي كل الاحوال فإن اللوحة تبدو بذلك انفجارات لونية في ليل مقيم. او تبدو كأنها تضع الربيع المشمس بإزاء الليل. فالاسود هو عظام اللوحة وفقراتها والالوان الصيفية الحارة تلتم فيه وتتركب وتجد هندسة ومعماراً.

ليست لوحات العزاوي الاخيرة ما كانته لوحته من قبل ومن قليل، حين كان البناء القوي يدمج او يلحم عناصر مجلوبة، بعضها مقيم على متحفيته وتمامه. لوحته اليوم ليست بهذا البناء الأسر، الذي وان كان في سابق لوحات له يدل ببراعة وسيطرة أخاذة، بل وببداهة هندسية مفحمة. إلا انه يشي بجاهزية واسبقية على لحظة الرسم، وأكاد اقول من دون ارتياب، وباكاديمية ايضاً. في اللوحات الجديدة ليس للبناء هذا الاسر والفخامة وليست له بالتالي تلك الجاهزية. انه حر اكثر. اللوحة حرة من القبة غير المرئية التي تمسك اطرافها وحركتها، ومن هذه الواحدية المفرطة التي ترد اليها عناصر متفارقة شتى في الاصل. ان الاشكال والالوان الآن تنبني بقوة ايضاً ولكن في تشكيل ومعمار يماشيان تشكيل اللوحة وايقاعها، ويتيحان لهذا التشكيل وذلك الايقاع ان يندّا اكثر عن تفاصيلهما وجزئياتهما ومجراهما. اي اننا هنا امام لوحة تتنفس فيها الاشكال والخطوط والالوان ولا تقع فوراً تحت ربقة معمار ضاغط يعجل باللوحة الى وحدة مبالغة مؤثراً بذلك التشييد والتركيب والدمج على الفضاء والسعة. لوحة العزاوي الحالية تجد بناءها وشكلها على طريق التشعب والحركة اللولبية والسيولة المحسوبة، وهي لا تعجل في البناء ولا تجعل له اسبقية واولية على مباشرة اللوحة والعمل فيها. إنها تطلق اكثر حركتها وايقاعها الداخليين، وتنبني من داخلهما وعلى طريقهما. بهذا تصل اللوحة غالباً الى شكل اقل توقعاً، اكثر حساسية وجوانية، واكثر تطابقاً ومماشاة لنسيج اللوحة وحركتها، ولنقل اكثر فضاء وعرضاً.

ربما كان مرد ذلك في جانب منه الى ان مفردات اللوحة هي الآن غير مجلوبة، وأقل متحفية وتماماً. انها في الارجح اشكال غير تامة، تولد من لولبية الخط وتبقيعات اللون. اشكال من داخل اللوحة، من تشابكها وليليتها (أليس الليل هنا بسيولته وغوره وترجرج حدوده محل القبة الجامعة والمعمار المشيد) لذا تتوصل (الاشكال) وتتقاطع وتتداخل بحرية وجوانية وحساسية اكثر. من هنا تصنع اللوحة شكلها من شبك ودمج لا نموذج لهما.

مع ذلك وربما نصل الى بناء آسر كما هو الحال دائماً في فن العزاوي. لكنه هذه المرة أقل فخامة، فيما هو اكثر غناء وخفة ورقة ايضاً، اكثر تنفساً ونبضاً وحركة. انه أقل نصبية وأكثر انتشاراً وفضاء.

ففي عدد من لوحات العزاوي الجديدة نشعر ان الريشة واليد، وهما تنشآن خطوطهما اللولبية وتشعيباتهما الشائكة وبقعهما الحارة، انما تنسجان ذلك بخيط. واذا جاز لنا ان نفتقد عراق الزخارف والنقوش والكتابة العربية، فإننا نجده (اي العراق) يتوطن اكثر في اشكال مستحدثة، فيها نبض وظلال النخيل والحارات القديمة والدهاليز والصيف والتراب والرمل والماء.

لا نجد هنا ما سماه كورناي مقدم كاتالوغ المعرضين (احد كبار حركة

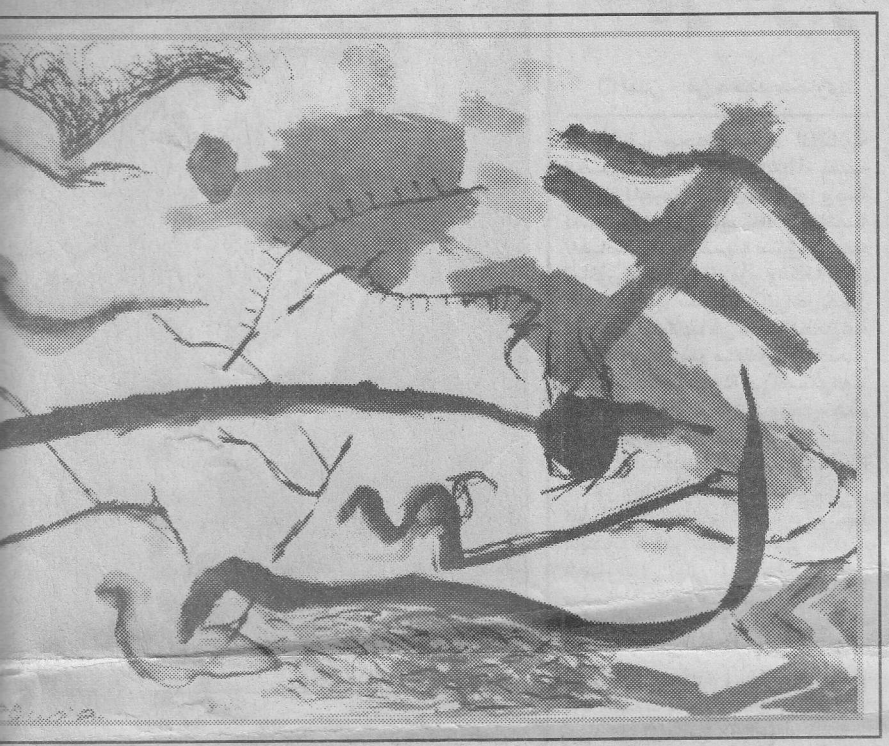

ارادة الحياة للشابي.

الكوبر المهمة) سجاجيد، او قل اننا لا نعثر على السجاجيد فوراً (السجاجيد حرفياً موجودة اكثر في فن كورناي نفسه). في ميل العزاوي الى التركيب وابتعاد النسبي وهنا خصوصاً عن الزخرفة المباشرة ينبوان بلوحاته هذه عن السجاد. قد نجد في عدد من اللوحات ما يشبه رقش البسط والعباءات والثياب والأواني والاغراض اليومية. إلا ان سجادة العزاوي، اذا جاز ان نسميها كذلك، ليست حرفية. انها اكثر في هذا الفرح باللون، في الالوان التي قلما تعرف البهوت والانطفاء والطيفية. الوان التراب والدم والعشب والليل والسماء. اي ألوان اصلية، اذا جاز القول، تكاد تكون اتخذت من مصادر الطبيعة والجسد انفسهما. للتلوين هنا فرح ومجانية نسبيان هما من فرح صانعي السجاد باللون والنقش ومجانيتهما. لكن في لوحاته، جديدها وسابقها، ميل الى بناء نصبي من جزئيات الموزاييك (الذي هو في معنى ما اللوحة) ووحداته المتفاوتة في حجمها وانساق اجتماعها. هذا الميل الذي كان يتوخى القبة والمعمار الاسلامية في لوحات مضت، يتوخى الآن، في بعض اللوحات، نسقاً أقدم. فنحن نجد في هذه نزوعاً الى التماثيل الاشورية في متانتها واحكامها الهندسي وتربيعها. كما، ونحن نتأمل ما نسميه مجازاً موزاييكات ضياء العزاوي، نجد ان وحداتها بأنساقها ومجموعاتها المختلفة، بتأطيرها الاسود تتراكب في ما يشبه وهم منظور (برسبكتيف). بل نرى على بعض اللوحات ذات السطوح الاكثر تراكبا والخطوط الاكثر حدة وهندسية سيماء من التكعيبية، وربما وجدنا على غيرها لائحة من بيكاسو ما بعد التكعيبي في حركة الخط ولولبيته وتوزيع المساحات اللونية، أي ان العزاوي هنا يسافر من الموزاييك والسجادة الى لوحة اخرى. انه حين يمنح الموازييك وهم منظور ويكسبه سيماء التكعيبية او غيرها.